الجامعة المستنصرية – كلية الآداب

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية

د. عباس رحيم عزيز

مادة الأدب الجاهلي

المحاضرة الخامسة عشرة

موضوعات الشعر الجاهلي

لعل أقدم من حاول تقسيم الشعر العربي جاهليا وغير جاهلي إلى موضوعات ألف فيها ديوانا هو أبو تمام المتوفى حوالي سنة 232 للهجرة، فقد نظمه في عشرة موضوعات، هي الحماسة، والمراثي، والأدب، والنسب، والهجاء، والأضياف ومعهم المديح، والصفات، والسير، والنعاس، والملح، ومذمة النساء. وهي موضوعات يتداخل بعضها في بعض فالحديث عن الأضياف: أما أن يدخل في المديح أو في الحماس والفخر، والسير والنعاس يدخلان في الصفات، كما تدخل مذمة النساء في الهجاء، أما الملح فغير واضحة الدلالة.

وجاء في باب الأدب بما يدل على انه يقصد به المعنى التهذيبي، غير انه انشد فيه أبياتا في وصف الخمر، واغفل اغفالا تاما باب العتاب والاعتذار.

ووزع قدامة بن جعفر في كتابة نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات، وهي المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقي أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المديح والهجاء، فالنسيب مديح، وكذلك المراثي، ومضى يعين المعاني التي دار حولها المديح، وهي في رأيه الفضائل النفسية، ونجد نفس المحاولة في تضييق، موضوعات الشعر واضحة في كتاب نقد النثر، فهو مديح وهجاء وحكمة ولهو، ويدخل في المديح المراثي والافتخار والشكر واللطف في المسألة ويدخل في الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب.

كما يدخل في الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطرد وصنعة الخمر والمجون.

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر في كتابه العمدة تسعة، وهي النسيب، والمديح، والافتخار، والرثاء، والاقتضاء والاستنجاز إلى المديح، والوعيد والإنذار إلى الهجاء، وان يضم العتاب إلى الاعتذار، وأيضا فانه نسي موضوع الوصف.

ويقول أبو هلال العسكري: وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة: المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمراثي، حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا وهو الاعتذار فأحسن فيه، وهو تقسم جيد، غير انه نسي باب الحماسة، وهو أكثر موضوعات الشعر دورانا على لسانهم.

ولا نستطيع أن نرتب هذه الموضوعات في الشعر الجاهلي ترتيبا تاريخيا، ولا نعرف كيف نشأت وتطورت, فان الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت كما قدمنا، وان كنا لا نستطيع أن نظن ظنا أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم، يستعينون بها على حياتهم، فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم، كما نشأ شعر الرثاء وهو في اصله تعويذات للميت حتى يطمئن في قبره، وفي أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التي تكمن فيها آلهتهم والتي تبعث فيهم الخوف، ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلة إلى موضوعات مستقلة.

**وتقسم هذه الموضوعات إلى:**

**1- الوصف:** من أقدم الأغراض الشعرية في العصر الجاهلي، وهو لم يكن غرضا مستقلا بل كان يرد عرضا في قصائدهم.

لقد اقتصر وصفهم على البيئة الصحراوية وطبيعتها، وهو نوعان:

**أ- وصف الطبيعة الصامتة:** كالسماء والكواكب والأنواء والنجوم والسحاب والرياح والمطر والصحراء والليل والجبال، فالشاعر امرؤ القيس يطرب لرؤية البرق والسحاب الذي حمل الأمطار الغزيرة التي شكلت سيلا جارفا، داهم مدينة (تيماء) فقلع أشجار النخيل فيها، وهدم منازلها الطينية، ولم تصمد أمامه إلا البيوت المشيدة بالحجارة.

**تيماءَ لم يُترك بها جذع نخلة ولا أُطُمًا إلا مشيدًا بجندل**

**ب- وصف الطبيعة المتحركة:** لقد أحب ابن الصحراء حيواناتها الأليفة، وتعلق بها لأنها رفيقته في السفر ومؤنسته في الوحدة ومطيته في السفر، وطعامه إذا جاع وشرابه اذا عطش، ورداؤه من حر الصيف وقر الشتاء، أهمها الناقة سفينة الصحراء، أما الجواد فهو أداته في الحرب، يمتطي صهوته ويصول ويجول ويغير. وتبعا لذلك فان الشاعر الجاهلي قد تفنن في وصف الناقة والجواد وصفا دقيقا أتي على جميع أعضائهما ولا تخلو معلقة من وصف الناقة.

قال الأعشى واصفا ناقته القوية التي اعتمد عليها في إجازة الأماكن المخوفة:

**وبلدة ٍ مثلِ ظهرِ التُّرسِ موحشة ٍ للجِنّ بِاللّيْلِ في حَافَاتِهَا زَجَـــــلُ**

**جاوزتها بطليحٍ جسرة ٍ ســـرحٍ في مِرْفَقَيها إذا استَعرَضْتَها فَتَل**

لم يقتصر وصف الشاعر الجاهلي على وصف الناقة والجواد، بل وصف حيوانات الصحراء الأخرى كالحمار والوحشي والغزال والبقرة والوحشية والذئب والضب ...

**2- الغزل والنسيب:** منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض كان يصحبه الحب، والغزل: فن طبيعي وإحساس راق، يترجم عاطفة إنسانية سامية، يبوح فيها الشاعر بمشاعره للمرأة التي يحب وهذا اللون كثير في أشعار المحبين الذين تعلقت قلوبهم بهوى المرأة المحبوبة، فجاء شعرهم انعكاسا لما يعانون من لوعة الغرام ومر الفراق.

أما النسيب أو التشبيب بالمرأة، فهو الذي يعني بوصف محاسنها ومفاتن جسمها وذكر أخلاقها، فالغزل قد جمع بين الحب الصادق والافتتان بجمال من يحب. وهناك شعراء اشتهروا بالنسيب دون أن يكون لهم مقام في الغزل، لان النسيب غذا من مستلزمات القصيدة الجاهلية. فالشاعر عنترة وامرؤ القيس كانا غزلين.

اما زهير وعمرو بن كلثوم وغيرهم، فكان النسيب يتصدر معلقاتهم.

ولما كانت حياة البدوي قائمه على التنقل والارتحال وعدم الاستقرار، فقد كثر في النسيب ذكر أطلال الديار والرسوم العافية لشدة صلة المرأة وارتباطها بها، فلم تخل قصيدة لشاعر جاهلي من وقفة على الأطلال يستنطقها ويحييها لآنه يشتم منها رائحة الحبيبة التي غادرتها.

قال عنترة داعيا لديار عبلة بالسلامة

**يَا دَارَ عَبْلـةَ بِالجَواءِ تَكَلَّمِـي وَعِمِّي صَبَاحاً دَارَ عبْلةَ واسلَمِي**

**3- الحماسة والفخر:** يراد بالحماسة شعر الحرب بكل ما يستتبعه من التحريض على القتال والدعوة إلى الأخذ بالثأر والافتخار بشجاعة أبناء القبيلة وقوتها ونضرا لكون الشعر العربي في العصر الجاهلي قائما على القوة والقتال في سبيل الحياة في هذه الطبيعة المقفرة القاحلة فلا عجب أن ينطبع معظم الشعر العربي بطابع الحماسة، ولهذا وجدنا الشاعر العباسي الكبير أبى تمام الطائي قد صنف كتابا في أشعار الحرب والفخر سماه (الحماسة)، هذا الباب يحتل الشطر الأكبر من هذا الكتاب الذي تضمن بقية موضوعات الشعر.

أما الفخر فهو جزء من الحماسة، وفيه يفخر الشاعر بقوته وشجاعته وإعجابه بنفسه وانتصاره على الأبطال، وكان لأيام العرب وحروبهم الطاحنة كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء دور في شحذ قرائح الشعراء على القتال والثأر والفخر نوعان:

**أ- فخر فردي:** وهو فخر الشاعر بنفسه، فالشاعر عنترة يستعرض بطولته وإقدامه وقوته وقدرته على منازلة الشجعان والنصر عليهم

**ومُـدَّجِجٍ كَـرِهَ الكُماةُ نِزَالَـهُ لامُمْعـنٍ هَـرَباً ولا مُسْتَسْلِـمِ**

**جَـادَتْ لهُ كَفِّي بِعاجِلِ طَعْنـةٍ بِمُثَقَّـفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقَـوَّمِ**

**ب- فخر الشاعر بقبيلته:** وفيه يصور الشاعر شجاعة رجال قبيلته وقوتها وانتصارها على أعدائها، فالشاعر عمرو بن كلثوم عندما انشد قصيدته أمام ملك الحيرة عمرو بن هند، نسي ممدوحة، وأسهب في فخرة بشجاعة قومه في الحروب ومعاركهم المنتصرة.

**أَبَا هِنْـدٍ فَلاَ تَعْجَـلْ عَلَيْنَـا وَأَنْظِـرْنَا نُخَبِّـرْكَ اليَقِيْنَــا**

**بِأَنَّا نُـوْرِدُ الـرَّايَاتِ بِيْضـاً وَنُصْـدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رُوِيْنَـا**

وهناك صله بين الخمرة والأنفة والكرم والعفة، فهذه من باب الحماسة فالشاعر عنترة يفخر بكرمه وإنفاق ماله في شراء الخمرة وشربها، لكنه لا يدعها تهيمن على عقله، فتذهب مرؤته وتدنس عرضه، وإذا ما صحا فهو الكريم المعطاء:

**فإذا شربتُ فإنني مُسْتَهْلِكٌ مالي وعرضي وافرٌ لم يُكلم**

وإذا صَحَوْتُ فما أَقصِّرُ عنْ ندى ً وكما عَلمتِ شمائلي وَتَكَرُّمي

انه فارس عبس يتقدم الصفوف في ساحات المعارك رافعا راية النصر المتوجة بالغنائم التي يخلفها الأعداء، فتعف نفسه عنها في الوقت الذي يتهافت غيره عليها قال مخاطبا ومفاخرا محبوبته عبلة:

**يُخْبِـركِ مَنْ شَهَدَ الوَقيعَةَ أنَّنِـي أَغْشى الوَغَى وأَعِفُّ عِنْد المَغْنَـمِ**

**4- المديح:** كان الشاعر في العصر الجاهلي لسان قبيلته المدافع عنها، والمباهي بمحامدها كالكرم والشجاعة والوفاء بالعهد وحماية الجار وإغاثة الملهوف، وقد ورد ذلك في معلقة عمرو بن كلثوم ولبيد والحارث بن حلزة.

هناك شعراء انصرفوا إلى مديح الملوك والأمراء والكرماء رغبه في نيل جوائزهم وعطاياهم، فقد انصرف النابغة إلى مدح ملك الحيرة النعمان يفضله على سائر الناس، موليا ظهره للمعارك الطاحنة بين قبيلته وقبيلة عبس في حرب داحس والغبراء، قال مادحا النعمان:

**لا أَرى فاعِلاً في النّاسِ يُشبِهُهُ وَما أُحاشي مِنَ الأَقوامِ مِن أَحَدِ.**

لكن النابغة استحدث لونا جديدا في هذا الباب: هو فن الاعتذار في قصائده التي خاطب بها النعمان يطهر فيها بهتان الواشين الذين لفقا أشعارا في ذمة نسبوها اليه كذبا:

**لئن كنت قد بلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغش وأكذب**

أما الشاعر زهير بن أبي سلمى، فقد انقطع إلى مدح هرم بن سنان والحارث بن سيدي قبيلة ذبيان لموقفه الإنساني النبيل في وقف حمام الدم بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء، فيقسم بان هذين السيدين قد حازا كل صفات الشرف والمروءة والرفعة:

**يَمِينـاً لَنِعْمَ السَّـيِّدَانِ وُجِدْتُمَـا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيْلٍ وَمُبْـرَمِ**

**5- الهجاء:** كان الهجاء في غالب الأحيان ملازما للفخر، فعندما يفخر الشاعر بنفسه وبقومه، فانه يميل إلى هجاء أعدائه، وإلصاقه بهم جميع الصفات السيئة التي تحط من قدر الشريف، كالجبن والبخل والغدر...

عندما أراد الأعشى أن يهجوا يزيد بن مسهر الشيباني، بدأ بالافتخار بقبيلته وتعداد محامدها وانتصارها بيوم (العين) بين بني قيس بن ثعلبه وشيبان في موضع بالبحرين يسمى فطيمه.

**نحن الفوارسُ يومَ الحنو ضاحيةً جنبي فطيمةَ لا ميلٌ ولا غزلُ**

**6- الرثاء:** لقد كثرت مراثي الشعراء في العصر الجاهلي بسبب كثرة حروبهم، فهم يرثون قتلاهم الذين يصرعون في ساحات المعارك، أو يرثون أشرافهم وزعمائهم، فيعددون مناقبهم، ويشيدون بمأثرهم وفضائلهم، ويظهرون التوجع والبكاء، وكثيرا ما كان الرثاء يمتزج بالحكمة والحديث عن مصائب الدهر ونوائبه. وقد اشتهر بالرثاء من شعراء الجاهلية الخنساء ودريد بن الصمة في رثاء أخيه عبد الله الذي صرعته سيوف أعدائه، فيعدد مناقبه

**لئن كانَ عبدُ الله خِلى مكانــــــــــــه فما كان وقّافاً ولا طائِش اليــــــد**

**صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسهُ فلما علاه قال للباطل ابعُــــــــــــد**

**7- الحكمة:** مال بعض الشعراء الجاهلين إلى أمور اضطرتهم إلى التأمل والتفكير، فعكفوا على تلخيص نضرتهم إلى الحياة والموت في أشعارهم ومع توالي الدهور شاعت أمثال وحكم، أخذت تتناقلها الأجيال وأشهر من فاه فهمه بالحكمة زهير بن أبي سلمى فنزل في قومه منزلة الحكيم العاقل، والمشير الناصح، قال:

**فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَـى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ**

أما الشاعر طرفة فحكمة حكم فتى في العشرين أنفق ماله في وجوه اللذه واللهو، وقد علمته التجارب أن الخلود في الحياة امر مستحيل، فعلى المرء أن ينفق ماله لاهيا قبل أن تدركه منيته ويرى أن لا فرق بين قبر كريم وبخيل:

**أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غَويّ في البطالة مُفسِد**

ويرى أن اشد أنواع الظلم هو ظلم الأقارب وظلم ذو القربى اشد مضاضه على المرء من وقع الحسام المهند.

**وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَـةً عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّـدِ**

خصائص الشعر الجاهلي

**الخصائص المعنوية:**

ونعني بها: المضمون، الذي هو وحدة الفكر والخيال، وما ينتجه الشاعر من المعاني والخواطئ التي يرمز اليها بالألفاظ والصيغ الأدبية، على أن لا نفهم أن هناك انفصالا بين المضمون والشكل لان الشكل الأثر الأدبي متصل اتصالا وثيقا بالمضمون وقد تميز بانه:

1- كان شعرا صادقا، وذلك نضرا لتعبير الشاعر عن كل ما يجول في نفسه وخاطره من مشاعر، رغم عنصر المبالغة الذي يظهر في بعض الأشعار الجاهلية.

2- إن طبيعة الحياة التي كان يعيشها العرب آنذاك جعلت منه شعرا بسيطا فطريا، ويعبر عن الشخصيات الإنسانية البسيطة غير المعقدة، تبعا لطبيعة الحياة التي كانوا يعشونها آنذاك.

**3- اتصف بالقول الجامع:** كان بيت الشعر في الشعر الجاهلي يجمع معان كثيره.

**4- الإسهاب والإطالة:** والاستطراد والخروج بأناقة عن الموضوع الرئيسي للتطرق إلى مواضيع ذات صله وكذلك الخيال الواسع، والعمق في التشبيهات

5- ما فيما يتعلق بالألفاظ المستخدمة فكانت جزلة وقوية جدا وذات صلة وثيقة بالموضوع الذي يتحدث عنه الشاعر، وكانت المقاصد واضحة، وقليلا ما نجد من الفاظ المجاز في الشعر الجاهلي، ويلاحظ القارء أن هناك عزوف شبه تام عن استخدام المصطلحات الدخيلة أو الأجنبية.

**6- الأسلوب المتين الواضح القوي:** وجلاء معاني الكلمات ومطابقتها للحقيقة، ونلاحظ انعدام استقصاء الأفكار، ولطالما تشابهت الأفكار، التي طرحا الشعراء، نضرا لتشابه البيئة لطبيعة الحياة التي عاشوا فيها.

**7- غلبة الطابع البدوي على التصويرات المختلفة:** وفيما يتعلق بمقدمه القصيدة الجاهلية فغالبا ما كانت تبدأ بالوقوف على الأطلال.

**8- الاستطراد للحديث:** الأثار المتبقية بعد رحيل الأهل عن الديار، وكذلك يتطرق الشاعر إلى العناء الذي يجده المسافرين خلال رحلته عبر الصحراء، ثم الحديث عن جمال المحبوبة والمغامرات العديدة لوصلها، ثم ينتقل للحديث عن الغرض الأساسي للقصيدة، والذي يتباين ما بين مديح وهجاء، وغزل، وفخر، أو رثاء.

**9- كثرة الحكم والأمثال:** لا تكاد تخلو قصيدة جاهلية من حكمة أو مثل سائر؟، والمعروف انهما أدب مكثف لا يهتم بالتفصيل ولكنه بهتم بنقل صفوة التجارب والخبرات ويقال: تجمع في المثل أربع أمور لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة: ويقال: المثل أبقى من الشاعر وأشرف من الخطابة.

**10- عدم الإغراق في الخيال:** إن عنصر الخيال يكاد يكون محدودا بحدود الواقع، لان الشاعر اعتمد على الصور التي تقوم على التشبه المستمد من الواقع المادي الحسي، فالشاعر الجاهلي لم يغرق في الخيال حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله في الطبيعة، فهو لا يعرف الغلو والمغالاة، ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعقولة.

**11- الشعر الجاهلي شعر غنائي:** إن موضوعات الشعر الجاهلي كلها ذاتيه، فلم يكن لدى العرب في الجاهلية شعر قصصي كما لدى اليونان على سبيل المثال، فقد نظم شعراء اليونان الملاحم، في حين لم يعرف العرب الجاهليون هذا اللون من الشعر، ولم يعرفوا الشعر التمثيلي أو الشعر التعليمي أو العلمي.

**12- وحدة البيت:** إن وحدة البيت في القصيدة الجاهلية لا تتعارض أبدا مع وحدة القصيدة، فالبيت الواحد كاللؤلؤة مستقله بذاتها، وقيمتها، وثمنها، وجمالها، وإذا ما اجتمع اللؤلؤ في العقد ظهر جمالها، وروعته واكتماله كذلك البيت الذي يتحد مع غيره من الأبيات ليشكل صوره، وهذه الصورة يتولد عنها صورة أخرى وهكذا إلى أن تصبح مجموعة من الصور تشكل الصورة الكلية في القصيدة.